إبراهيم الملحم

فاديا

AUSTIN MACAULEY PUBLISHERS™
LONDON * CAMBRIDGE * NEW YORK * SHARJAH

حشدَ الرفاقَ في سيارته التي جعلها أبوه رهن إشارته، وطاروا بها تحملهم أجنحة اللهفة والشوق لمستقبل زاهٍ بعد أن اجتازوا الثانوية بنجاح باهر، وها هي أرامكو الشركة العملاقة الأولى في العالم في مجال النفط تناديهم أن ينضمُّوا لمنظومتها الوظيفية، وأن يعدُّوا أنفسهم لمن اجتاز منهم الشروط للسفر خارجًا في ابتعاث لأمريكا، المكان الذي كان يحلم به كبار أن يروه ولو لأيام، فما الحال وشباب في ميعة الصبا كلهم قد قَدِمُوا مِن حارات بؤس وضنك عيش سيهاجرون لهناك لا لأيام ولا لأشهر بل لسنوات؟ أما الذي لَم يحقق الشروط، أو لا يرغب أصلًا في السفر للخارج فسيبتعث لجامعة البترول والمعادن بالظهران.

السيارة تمخر عباب الطريق وكأنها توافق وتجاري ثورة الدم الشاب في عروق راكبيها.

الأحاديث الشيِّقة التي كثيرًا ما يتخلَّلها الضحك النابع مِن القلب أنسَتهم الزمن حتى بلغوا المكان المحدَّد.

ساحة مُعَدَّة لاستقبال الطلبة الراغبين في ابتعاث عن طريق الشركة.. اصطفوا مع الجميع، ولمَّا جاء دور سامي قائد المركبة والذي نال أعلى الدرجات بين رفاقه دار الحوار بينه وبين الموظف المختص بتسلُّم أوراق المتقدمين:

الموظف:

- أهذه كل الأوراق المطلوبة؟

سامي:

- نعم، كلها موجودة.

الموظف وقد ألقى نظرة سريعة عليها، رفع رأسه بغتة وقال:

- أتريد السفر لأمريكا؟ أُنهي إجراءاتكَ الآن؟

أخذَت سامي رعدة! وأخذ يخاطب نفسه: أنا سامي الذي ومنذ طفولته لَم يعرف مكانًا معرفة حقَّة إلا حارته بأحساء وحارات منها قريبة، والذي إذا صاحب أبناء عمومته لزيارة أبيهم في مكان سكن عمله بأرامكو في مدينة لا تبعد عن منطقته إلا ثلث ساعة، ورأى المسكن وهو ليس إلا "بورتبل" غرفة خشبية صغيرة على شكل كوخ، وشاهد الحديقة البسيطة الملحقة، وجال معهم بين حارات المجمع السكني أو ما يدعونه "الكامب"، وارتاد الطرقات الجميلة المرصوفة بإتقان والمزدانة على جانبيها بشجيرات ونباتات مشذَّبة أكسبَت المكان جمالًا على جمال، ظنَّ نفسه أنه في أمريكا حقًّا! وأنا

الذي لَم يرَ الدَّمَّام والظهران التي لا تبعد عن بلدتي إلا ساعة ونصفًا إلا مرات تُعَدُّ على أصابع اليد الواحدة وكانت لزمن يسير لا يتسنَّى معه القول بمعرفتها حقًّا، أأنا هذا وهذا الموظف يطلب مني الموافقة على سفرٍ لأقصى الدنيا؟! وأين.. لأمريكا؟!

اصطكَّت ركبتاه، وأحسَّ أن دوارًا أصابه، فأخرجَ لسانه بالكاد مِن بين شفتيه، وصوَّب كلامًا لأذن الموظف حمدَ الله أن بلغها:

- لا، أنا أريد ابتعاثًا داخليًّا، وأفضِّل الالتحاق بجامعة البترول والمعادن بالظهران!

الموظف وقد أصيب بخيبة أمل:

- طيب!

ما إن انتهى تقديم الأوراق إلا وجد الرفاق مسارعين لركوب السيارة.

طريق العودة كان مختلفًا، فقد كانت المشاعر متضاربة، وكلٌّ سبَحَ في تخيُّلاته وفي المستقبل الذي بدا يتشكَّل له، وإن دار حوار مقتضب قطع رتابة الصمت، وأعاد الجميع لأجواء الواقع، فابتدأ صالح الكلام بسؤال فيه نوع مِن دهشة واستغراب بدَيَا في تعابير الوجه ونبرة الصوت:

- معذرةً سامي، ألَم تكن تحلم مثلنا في الذهاب لأمريكا؟ نحن لَم تنطبق علينا الشروط وقد كنَّا نذوب شوقًا لذلك، وأنت الوحيد بيننا الذي اجتازها، ثم ترفض السفر! عجيب أمرك يا سامي!

سامي وقد تضاربَت في رأسه كل الأفكار، حار ما يقول لهم وهم ألصق الناس به وأعرفهم بشخصه، فلا قدرة له لو أراد أن يكذب في إجابة، غير أنه سرعان ما خطر له رأي استحسَنَ قوله وهو على الأقل يكفُّ عنه استمرار الرفاق في التركيز على قراره الذي اتَّخذَه، ولعلَّه يصرف حديثهم لموضوعات أُخرى، فردَّ على صالح، وإن كان الكل يرغب في استماع لإجابةٍ شافية:

- صدِّقني يا صالح، إن الدراسة هنا في بلدك وبين أهلك أفضل بكثير مِن الغربة، فهناك ربما قابلَتك أحوال تكدَّر عليك جو الدراسة، أو ربما تصرفك عنها نهائيًّا، بينما أنت هنا كل أمورك ميَسَّرة، وأي ظرف يعيقك ستجد الجميع وأوَّلهم أسرتك يسارعون لنجدتك، ويجعلون الجوَّ لك مناسبًا لدرسٍ وتحصيل، كما لا تنسَ أنك تتكلم عن جامعة "البترول والمعادن" التي تُعَدُّ مِن الجامعات المشهورة بكفاءة تعليمها وبعلُوِّ كعب طاقمها الأكاديمي على المستوى العالمي؛ فالدراسة فيها تحقِّق أيضًا للملتحِق فيها إشباعًا

معرفيًّا تجعله غدًا في مصاف قيادات شركة أرامكو في التخصُّص الذي دخله.

بدا أنَّ صالحًا وبقية الرفاق اقتنعوا بجواب سامي، فتحوَّل النقاش لاحقًا لأمور شتَّى وإن غلبَ الصمت على المساحة الزمنية الممتدَّة لبلوغ مشارف الأحساء البلد الحبيب.

فتحَ الجميع نوافذ السيارة، وأخرجوا رؤوسهم، وأخذوا في سحب الهواء بقوة لداخل أنوفهم وكأنهم كانوا في سجن تحت أرض لا يتسرَّب إليه هواء، وما إن أُخرجوا منه إلا وتسابقوا يعبُّون مِن الهواء عبًّا؛ ليعوِّضوا فاقدًا كاد أن يودي بهم!

خالد:

- دعونا مِن كل شيء يا رفاق، ولا تحرمونا لذَّة هذه الساعة ساعةَ أن رأينا الأحساء ثانيةً بعد أن فارقناها لساعات! ربما لو سمع بما نقوله أحد لا ينتمي إليها أو حتى لَم يسكنها ولو لأيام لظنَّ أننا نخرف ونقول كلامًا لا يصحُّ مِن عقلاء! لكنها الأحساء عشقٌ تشرَّبَته نفوسنا منذ أن وعينا على هذه الدنيا، فما يقدر على انفكاك منها إلا قلة اضطرَّتهم ظروف العيش لخروجٍ منها وسكنَى غيرها، ومهما حاول أحدهم نكران ذلك رغبة منه في مجاراة واقع إلا إنه تفضحه يومًا كلمة يوم تُذكر الأحساء عنده في سيرة أو تنهيدة يطلقها حين يسمع اسمها في حديث، أو يعلم

بخبر رجوع أحد أبنائها إليها مِن منطقة كان يعمل بها وقد أُعطيَ موافقة بانتقال.. الأحساء ببساطة نبضة قلب سنكفُّ عن الهذيان بها يوم أن يتوقف القلب، ويتردَّى الجسد مسجى.

وقع هذا الكلام على سمْع محمد كالصاعقة فانتفضَ وقد كان أقلَّهم كلامًا طوال الرحلة، فشرع الآن في الحديث كأنه انفتحَت له أبواب كانت في الذهاب والإياب موصدَة، والحقُّ أنَّ هواء الأحساء لمن يعشقها مِن أهلها كان السرَّ في تفتُّح مسام الفرحة عنده، وانشراح الصدر، وتفتُّق مغاليق الكلام، وهو الذي أصغى بكليته لما قاله زميلهم خالد، فحرَّك شجونه، وأفلتَ لسانه مِن عقال، فانطلَقَ في خطاب موجَّه للجميع:

- أمَّا أنا يا شباب، فالآن عرفتُ نفسي على حقيقتها، ولن أصادمها بحال تحت أي ذريعة، ولو كانت بمثل ماكنَّا دومًا نتغنَّى بها، دراسة بخارج أو حتى في ظهران، ونشدان مستقبل باهر وحياة بمنظار آخَر.. لا.. لستُ أنا الذي يقامر فيدوس هناءة نفسه ولذاذة بسيط معيشتها في موطنها في حارتها وبين أحباب حلو معشرهم أراهم في غدوٍّ ورواحٍ وخروجٍ مِن دارٍ وولوج، أنا جزء مِن نسيج جميل حِيكَ بحذق ومهارة إن انفلَتَ منه خيط ولو دَقَّ شاه النسيج بأكمله وعزف الراؤون عن النظر إليه فضلًا عن تفكير في شرائه وتملُّكه!

أثقلتُ عليكم يا شباب، لكنه جبل انزاح عن كاهلي، وهمٌّ كان مطبقًا على صدري، فالآن تنفَّستُ منه الصعداء، أنا سمكة حياتها في البحر، ومهما أقنعتَها أنَّ حياةً تنتظرها في برٍّ فيها مِن الأعاجيب والمدهشات فلن تقدِر على خروج ولو للحظات، ستبدأ الاختناق أول بروزٍ لها، وما لَم ترجع سريعًا فإنها ستكون عرضةً للشفقة مِن الرائين؛ إذ لن يستقرَّ لها قرار، وستبدي حركات ألصق ما تكون بجنون، سترفع نفسها لأعلى، وترضخ جسمها على أرض في تتابع يستفزُّ النظر.

أردف محمد قائلًا وقد تراخَت أعضاؤه، واستكانَ كلُّ جسده، وكأنما انفلت مِن داء عضال، وتسرَّبَت إليه العافية، فأكسبَته رواءً ونضارة: أنا يا إخوتي سأمضي بقية حياتي كلها في تربة جذوري مغروسة فيها، ولن أعدم الحصول على تعليم جامعي يحقِّق لي ما أصبو إليه مِن علم ومعرفة كفيلَين بحصولي على وظيفة جيدة غدًا تدرُّ لي مالًا يكفيني لحياةٍ لا أرجوها ترفًا كما أتوقَّاها شدة عيش وشظف، بل أطلبها حياة وسطًا.

- ها قد وصلنا يا محمد داركم.. قالها سامي، **وأضاف:** أما أنت يا محمد، فأظنُّك عرفتَ نفسك، واطمأنَّت نفسك لقرارٍ اتَّخذتَه، فلتهنأ بحياةٍ مستقرة، ونحن فليُعِنَّا الله على ما نحن مُقْدِمون عليه.

شكره محمد، ونزل مِن السيارة بعد أن سلَّم على بقية الرفاق.

رجع سامي لداره بعد أن أوصل أصحابه، ودخل ولَم يكُن ثمَّة أحد، فأصابَته دهشة، فليس معتادًا أن يكون البيت خاليًا هذه الساعة ولَم يمضِ على صلاة العشاء إلا ساعة وحسب!

خمَّن أنهم ذهبوا جميعًا في زيارة لأحد أقربائهم، وأنهم سيكونون بين لحظة وأخرى عنده.

التَّعَب لَم يمهله أن ينتظر أكثر، فسحب رجليه وبالكاد أعانتاه على الوصول لفراشه في غرفته بالدور العلوي.

ألقى بنفسه كيفما اتفق، ثم راح في سباتٍ عميق، ومع أنَّ المتعَب عادةً لا تراوده أحلام في نوم إلا أنه كسر تلك القاعدة، وراح عقله يصطخب بأحداث سريعة وصور متلاحقة عقل منها بعد الصحو طريقًا طويلًا مظلمًا وتحويلات وعقبات وحفر هنا وهناك، وهو بشحمه ولحمه يتخبَّط في ذلك الطريق يمنة ويسرة، مرة يسارع في مشي وأخرى واقفًا ووجهه تكسوه حيرة وتردُّد، يلتفت في كل اتجاه كأنما يريد العون في استرشاد، وكلَّما واصل المسير جادًّا وظنَّ بلوغ النهاية امتدَّ له الطريق كأنما لا نهاية! هنا أحسَّ بالإفاقة وقد ارتسم أمامه وجه حبيب كله رضًا وابتسامة، أمه الحبيبة قد ملأَت منه النظر، ويدها اليمنى

تداعب خده وجبينه، والأخرى تمرِّرها على صدره تهدئةً له وتطمينًا.

فتحَ عينيه على اتساعهما، وإذا بها تقول له:

- حبيبي.. حمدًا لله على سلامتك، منذ قليل وأنا عندك، واضح أنك كنت في حلمٍ مزعج، انفعالات وجهك واضحة وأصوات منك تخرج كأنما كنتَ في شدة، وتطلب عونًا مِن أحدٍ ونجدة!

نهض مِن الفراش، وقبَّل جبين والدته ويدها، واحتضنَها بحبٍّ واشتياق، ومع أنَّ هذا كان شأنه معها دومًا إلا إنها أحسَّت أنَّ هذه المرة ربما تكون مختلفة، وقد خمَّنَت أنَّ هذا سببه أن ساميًا لَم يكن معتادًا أن يفارقهم يومًا بأكمله، فَهُم بيت عدا واجباتِ كل منهم الضرورية مِن دراسة وعمل يتحرَّكون سَوِيًّا ويعودون سَوِيًّا.

انتبهَت لحبيبها وهو يقول:

- لا عليكِ أمي، فلربما كان التَّعب الذي طالني بالأمس هو السبب في تلك الأحلام الغريبة!

ربتَت أمه بحنوٍّ على ظهره، وقالت:

- صَلِّ الآن وانزل، فبعد قليل يكون أبوك على سفرة الإفطار، تناوَلْ معه الطعام؛ فلعلَّك لَم تأكل طيبًا منذ فارقتَنا بالأمس، وفرصة أن تجلس مع أبيك تحيطه بما حدث بالأمس

معكم، وترجو منه المشورة، فأبوك – وغمزت بعينَيها – كنز معرفي، وعقل حكيم.

ابتسمَ سامي، وقام يصلح شأنه حتى إذا فرغ نزل لأبيه، فسلَّمَ عليه، وجلس معه على المائدة.

قدَّم لوالده ماعون التمر، وسكب له كأس حليب، وأفرغ لنفسه أخرى.. رشفَ قليلًا، ثم أراح الكأس على المائدة، فالتفت له والده وقال:

- سامي.. لستَ على ما يرام!

فردَّ سامي وإن كان بثقل وبطء:

- لا شيء يا أبتِ.

لَم يعجب الوالد الردَّ، فأمسكَ بيد ابنه، وضغطَ عليها، وأفعمها حنانًا سرعان ما تسرَّبَ لسامي، وهدأ خاطره، فتناول يد أبيه، وقبَّلَها مرارًا، ومرَّرَها على خدِّه إكرامًا ونِشدانًا لراحة، ثم قال:

- تعلم يا أبي أنَّا تقدَّمنا بالأمس للحصول على ابتعاث مِن أرامكو، وأنِّي كنتُ أنوي أن يكون في الخارج وتحديدًا في أمريكا، لكن لا أدري ما الذي حملَني على تغيير رأيي آخر لحظةٍ، وبالذات ساعة سألني الموظف المسؤول عن رغبتي للذهاب إلى أمريكا وأنه سيسارع، ومنذ اللحظة في الترتيب لإجراءات السفر لا أدري

حينها ما الذي أصابني حتى اهتزَّ هذا الكيان، وقد كنتُ أحسبه صلبًا، فإذا بكلمة سفر فقط تُحِيله حطامًا لا يقوى على صمود، ولا يهتدي لصحيح ردود!

هدَّأَ الأب الرحيم مِن رَوع ابنه، وأماله إليه، ثم قبَّلَ رأسه وقال له:

- هذا وعرفناه، ثم ما الذي حدث بعد ذلك؟

فاسترسلَ سامي:

- رفضتُ السفر، وقلتُ للموظف إنني أفضِّل الدراسة بجامعتنا الوطنية في الظهران، وحقيقةً يا أبتِ لا أدري هل ما قلتُه للموظف أنا مؤمن به فعلًا؟ أم أنه كان وليد الضعف الذي اعتراني وقلَبَ كياني؟

الأب:

- أنت تعلم يا سامي أنّي قد ربَّيتُكم على نهجٍ واضحٍ لَم أحِدْ عنه يومًا إلا لضرورةٍ مُلِحَّةٍ، أو أن يطلب مني أحدكم استشارة، فأبذلها له حبًّا وكرامةً، ولا أعول على تنفيذها أو أُرغِم أحدًا على الأخذ بها، هذا ديدني مع الناس ومعكم، صحيحٌ هذا النهج أو خطأ هذا شأنٌ آخر، لكني ارتضيتُه لي أسلوبًا في التعامل مع الجميع.. البعيد والقريب، وأحسب أنَّه إن شاء الله صحيح.

بُنَيَّ.. الأمر الآن خرج مِن يدك، فلا قدرة لك على إرجاع قرارٍ اتَّخذتَه، ومضَت فيه الإجراءات، هل ما أقوله صحيح؟ أم أنه لا يزال هناك مجال لتغيير الأوراق؟

فأجاب سامي على عجلة:

- لا يا أبتِ، فبمجرد تعبئة النماذج يكون الموضوع خرج مِن اليد، هكذا أُبلِغنا مِن قِبلَ الموظف، وكان يطلب منَّا التريُّث وعدم التعجل حتى لا تصيب أحدًا منَّا غدًا الحسرة على قرار متعجِّل خاطئ!

هنا أخذ الأب نفَسًا عميقًا، ثم استدار لابنه:

- سامي.. قد اتَّخذتَ قرارًا لا مناص مِن المضيِّ فيه إلا أن ترى طريقًا بعيدًا عن تلك الشركة، وما أظنُّك تفكِّر بذلك، وعليه فإن أردتَ رأيي وأنا لا أُلزِمك به كما تعلم من طريقة تعاملي معكم، إني أرى أنَّ الجامعة الوطنية التي اخترتَها جامعة معروفة عالميًّا، وشهادتها معترَف بها في كل دول العالم، كما أنَّك لستَ إلا بحاجة لشهادة تؤهِّلك للعمل في تخصُّص مطلوب مِن أرامكو الشركة التي ابتعثَتكَ ابتعاثًا محليًّا أو ما يسمَّى إيفادًا، وبالتالي فأنتَ على كل حال معدود إن اجتزتَ الجامعة – وأنتَ ستجتازها بحول الله – مِن موظَّفيها، فأيُّ فرق بينك وبين مَن سيأتي بها غدًا مِن أمريكا؟ نعم ربما، وأقول ربما كان هناك لمن يأتي شيء مِن تقريبٍ في بعض

الإدارات أو نحو ذلك، لكنَّه مِن وجهة نظري ليس بذلك الذي يوازي غربة سنوات، فلربما اجتاز عراقيل الغربة، ولربما أخفقَ في الاجتياز فعاد بِخُفَّيْ حنين، لا طال عنب الشام ولا بلح اليمن.

توكَّلْ على الله، ودعْكَ مِن كثير تفكيرٍ يوهنُ النَّفس، ويوجع القلب، وفي النهاية إرادة الله غالبة لا محالة.

أكملا إفطارهما، ومضى الأب كما المعتاد في صالة البيت يقرأ ما تيسَّرَ له مِن كتاب ربه، وقد جلسَت أم سامي بجواره تسمع منه علَّها أن تحوز أجرَ قراءة بعد أن حُرِمَتِ القراءة، وما استطاعت طلبًا لها بعد كِبَر.

سامي أخذ طريقه للمركز الرياضي القريب مِن بيته، وهو الذي قد اشترَكَ فيه منذ أشهر فقط، فقد ترهَّلَ جسمه كثيرًا أواخر أيام الثانوية لكثرة بقائه في البيت واستغلال الوقت في دراسةٍ ومراجعةٍ، وما نال الدرجات العليا إلا بسبب هذا الجدِّ والاجتهاد الذي كان عليهما.

دخل المركز، وأبدَل ملابسه في الغرفة المخصَّصة، ثم سارع لبركة السباحة الهواية المفضَّلة عنده، ورمى نفسه فيها بلا توانٍ، وما إن أخرج رأسه إلا وصاحبه المعتاد هنا (ريان) يناديه، فالتفتَ إليه وقد كان بآخر المسبح، فمضى إليه مسرعًا، وهناك كان الجلوس على درج المسبح.

ريان:

- سامي.. لَم أرك بالأمس كالمعتاد، فخشيتُ أن يكون ألَمَّ بك سوء؟

سامي:

- لا.. ليس بي بأس، غير أنّي كنتُ ذاهبًا للتقديم في أرامكو، فهي توفد الطلاب المتميّزين إمَّا للخارج للدراسة لمن أراد، أو توفدهم للدراسة بجامعة البترول في الظهران.

ريان:

- إذًا فقد فزتَ بها يا سمسم، جاءتك أمريكا بالتأكيد راكعة، فأنتَ الأول على المنطقة، وأنتَ بالتأكيد تستحقُّها. علت سحابةُ حزنٍ وجه سامي، فالتقطَها صاحبه:

- عذرًا سامي إن كنتُ أخطأتُ في كلمة، أو خرجَت منّي لفظةٌ لَم تكن مقصودة، فأنتَ تعلم أنَّك في مكان أخي، ووالله إني لأفرح لكل خير يحدث لك، و...

لَم يدعه سامي يكمل، وقال:

- لا عليكَ ريان، ولستَ بحاجة لذِكر كلّ ما قلتَ، فأنتَ حبيب لقلبي ومقرَّب عزيز، لكنَّكَ ومِن حيث لا تدري رميتَ ففتقتَ جُرحًا، وإن كنت أغلقته على صديد!

ريان وقد اعترَته دهشة:

- ياه! كل هذا أنا فعلتُه ببضع كلمات؟! هنا ما عاد الأمر يُحتمَل يا سامي، وعليك أن تقول لي ما الموضوع بالضبط!

شرع سامي في شرح موجَز حتى لا تضيع عليهم وقت الساعتين في المركز فلا يستغلَّانها في بقية الألعاب.

انتهى سامي، ولَم يملك ريان نفسه مِن إطلاق ضحكة عالية صرفَت إليهما الأنظار، وجعلَت ساميًا يحسُّ حرجًا، ويرجو صاحبه خفض الصوت!

استجاب ريان، لكنه قال لسامي محتدًّا وقد تغيَّرَت ملامح وجهه:

- أمعقول أن يكون هذا الأمر التافه يزعجك لدرجة الوسواس حتى يكدِّر عليك وقت صفوك وتحمله معك حتى هنا في هذا المكان الذي ينسلخ الواحد فيه منَّا مِن مسؤولياته ورتابة عيشة ليغنم فيه نعيم جسد وراحة بال؟!

يا أخي هأنتَ تراني وقد أنهيتُ الثانوية كيفما اتفق، ولَم ولن أفكر في إكمال دراسة، حسبي ما درستُ وكفى، وإني الآن أبحث عن أي وظيفة تُكسِبُني مالًا، ومهما قلَّ سأجمعه لبضع سنوات، ثم أرى طريقي في تجارة حرة، وأدع الوظيفة، وإني لأرجو أن أصيب منها خيرًا، وما أدراك وأنتَ بهذه السذاجة مِن التفكير أن أراك يومًا مع شهادتك تطلب مني سلفة لحين تسلُّم راتب؟

ثم ضحك وغمز له بطرف عينه، **وقال:** أمزح معك أمزح.

ضحك سامي مِن كلام صاحبه، وأحسَّ أنَّ سعادةً تعتريه، فأخذ بيد ريان، وألقى به في الماء ثم لحقَه، فأخذا في السباق، وقد جعل الباقون يأخذون جانب المسبح ويفسحون لهما الطريق حتى بلغا النهاية سَوِيًّا، فرفعا أيديهما فضرباهما ببعض، ثم خرجا يلتمسان فرصة في لعبة أخرى، لكن تبيَّنَ لهما أنَّ الوقت قد فات، وأنه ما تبقى على إغلاق المركز إلا دقائق معدودة، فانسحبا لغرفة تبديل الملابس، فلبسا ثم انصرف كُلٌّ منهما لبيته وقد هدأَت نفس سامي، وعادت لطبيعتها السابقة.

دخل البيت ودونما التفات لجهة أو ترصُّدٍ لوجود أحد قفز السلَّم اثنتين اثنتين بخفة ونشاط، وولج غرفته، وأغلق بابها، وارتمى على السرير يطلب الراحة هذه الساعة قُبَيل أذان الظهر، وراح في نوم عميق أول ما ألقى برأسه على الوسادة.

اجتماع الغَداء ضمَّ العائلة كلها ما تخلَّفَ منها أحد، ابتدأ الأكل وابتدأَت معه كما المعتاد الأحاديث التي غالبًا ما تكون في شؤون ما مرُّوا به صباح اليوم أو ليل الأمس، إلا أن يكون هناك موضوع يشغل المجتمع كحديث ساعة، فهنا يكون هو المهيمِن، وتتراجع أمور الخصوص وإن كانت ولا بُدَّ تُذكَر ولو على عجل.

هدى الابنة الكبرى وفاكهة جلساتهم دومًا، والحنون التي أخذَت مِن والدتها هذه الصفة الحميدة، فأكسبَتها محبَّة الجميع وثقتُهم، وكانت أيضًا موضع أسرارهم ومستودَع خصوصياتهم.

وجَّهَت سؤالًا على عجل لأخيها:

- هاه.. سامي.. بشر أَسبعٌ أم ضبع؟!

وهنا حانت مِن الأب التفاتة سريعة إليها، وألمح لها بإشارة سريعة أن تغلق الموضوع!

هدى ولأنها لماحة سرعان ما غيَّرَت الموضوع، وأدارتِ الدفة بمهارة لأخبار الساعة المحلية، فقالت:

- أسمعتُم عن هذا الذي قتَلَ أخيه في حارتنا لا لشيء إلا لأنه أغاظه في استهزائه بفريقه الذي يشجِّعه والذي انهزم مِن فريق في قاع ترتيب الفرق وليس له إمكانات مادية ولا حتى فنية؟!

فريد الابن الأوسط بين الأولاد قال:

- أمعقول هذا؟! واصلَت هدى:

- نُشِرَتِ القصة في صحيفتنا المحلية لهذا اليوم، ولو أنَّك معتاد أن تقرأ لعرفتَ بالحادثة، ولكنتَ على اطِّلاع بما يدور حولك بدلًا مِن هذا الضياع الذي أنتَ فيه!

هنا تداركَت هدى الأمر سريعًا، والتفتَت لوالديها مبدِيةً الأسف:

- معذرةً والدَيَّ، فليس لي أن أتكلم في موضوع كهذا بحضرتكما؛ فالأمر لكما أولًا وأخيرًا، لكنِّي أحترق مِن أجله، وأريده رجلًا يهتُّم بالعظائم، ويترفَّع عن توافه الأمور والصغائر.

هزَّ الأبوَان رأسَيهما موافقةً ورضًا بصنيعها، وإن كان قد أكسبَ ذلك وجهيهما مسحةً مِن حزن.

تكلَّمَ الأب:

- هدى.. أنتِ الكبرى، وكلُّ ما تقولينه في مصلحة إخوتكِ جميعًا، وهو ذاته الذي نريده نحن، ولسنا نجِد فرقًا إن تحدَّثتِ أنتِ أو تحدَّثنا نحن، ولعلَّ حب الجميع لكِ، وقربكِ منهم يوصل الرسالة أسرع وأنجع ممَّا كنَّا سنقدر عليه، فلا عليكِ حبيبتي، وواصِلي بالحسنى، فلعلَّ وعسى!

فريد:

- أعلم أنَّ هدى تحبني، وأنها تريد مصلحتي، لكنَّ مَن يسمعكِ يا غاليتي يظنُّ أنني موغل في ذنوب وخطايا جِسام! نعم لستُ ذلك الذي يستغلُّ وقته في مصلحةٍ، هذا حقٌّ لكني في المقابل لستُ ذلك المخطئ الكبير، وذنوبي محصورة بحمد الله في إضاعة وقت أراه في مباحاتٍ بعيدًا عن هموم العالم ومشكلاته ومآسيه.

أنا ليس لي جلدٌ ولا طاقة ولا حتى ذرة مِن رغبة في متابعة سياسةٍ ولا حوادثَ، وحسبي مُتَعٌ حلال أقضي الوقت فيها مع صَحب على شاكلتي.

ربما ترونني تافهين لا قيمة لنا، لكنَّا نحسب أنفسنا طيبين لَم نخطئ في حق أحد، ولا علاقة لنا بهذا العالم المضطرب، قام أو قعد فنحن بسطاء نتصرف على سجيَّتنا، ولسنا بالمهمومين بما يقول الناس عنَّا ما دُمنا لحدودٍ حافظين، ومع الناس طيبين ودُودين!

هنا كان للأب الحديث:

- ذهبتَ بعيدًا حبيبي، وشطَّت بك مراكبك، فما لهذا رامت أختك، ولا قصدَت كثيرًا ممَّا خطَرَ ببالك وأفضيتَ به! يا فريد يا ساكنًا قلب أبيك وأمك، إنَّما قصدَت هدى أن تقول إنَّ الوقت الذي تقضيه في استراحةٍ أو ما تدعونها ديوانية مع أصحابك وقت طويل، ولو أنَّكم استغلَلتُم جزءًا منه في تطوير أنفسكم، وتنمية مهارات وقدرات لديكم، أو أنكم طرقتُم أبواب خير ما أكثرها لتنفعوا الناس وتقدموا خدمةً لمجتمعكم، لكان هذا أَولَى بكم وأجدر، ألا ترى أنَّ معها حقًّا فيما تقول وأنها ما قالت ذلك إلا لشديد رحمتها بك؟ أَوَ مَا سمعتَ قول الشاعر الحكيم:

فقَسَا ليزدجروا ومَن يَكُ راحمًا

فليقسُ أحيانًا على مَن يرحم

فريد:

- أَتفهَّم ذلك يا والدي، وإني لأرجو أن أوفَّق في تغيير نمط هذه المعيشة التي أنا عليها، وأخطِّط لنفسي مسارًا جادًّا أثبت عليه؛ لَعَلِّي يومًا أراكم تفتخرون بي كما هو الحال مع أخي سامي!

ابتسمَ الجميع رضًا بما قال، في حين واصل فريد وقد التفتَ بكُلِّيته إلى ناحية سامي:

- بالمناسبة.. لَم تُطلِعنا على ما صنعتَه بالأمس في المقابلة؟!

تنهَّدَ سامي لكنَّه استجمع شجاعته وثقته بنفسه، وقال بصوت واضح وقوي:

- أنهيتُ أوراقي بحمد الله، وقد اخترتُ جامعة البترول، وبعد شهرين – إن شاء الله – سنلتحق بالدراسة هناك، وكما تعلمون فإنَّ للطلبة غرفَ سكنٍ داخلي بالجامعة مهيَّأةً تعينهم على جدٍّ في التحصيل لقربها مِن قاعات المحاضرات والمعامل، ولتوفر متطلبات العيش الكريم بها، وكذا مرافق الترفيه المتكاملة.

قال فريد:

- لكن...

ولَم يدعه سامي يكمل، بل أمسكَ بيده، وضغطَ عليها بحنوٍّ، وأنهى الحديث قائلًا:

- لا لكن ولا يحزنون.. قرارٌ اتَّخَذتُه، ورأيتُ صوابه، والغربة أراني عازفًا عنها بعد أن كنتُ بها كما كل الطلبة مولعًا بها، والخيرة – إن شاء الله – فيما اختاره الله، ودُعَاؤكَ ودعاؤكم لي بالتوفيق.

- وفَّقَكَ الله، وسدَّد خُطاك، وأنالك كلَّ ما تحب.

قالها فريد، وعقَّبَ الجميع وبحرارة: آمين.

فانفضَّ الجمع، وكلٌّ ذهبَ في خاصة أمره إلا ساميًا، فقد لزم مكانه، وسرح فكره بعيدًا، **وراح يخاطب نفسه:** يا هذه الأمريكا التي كلما ذُكِرتْ كدَّرَتْ خاطري، أأكون حتى الساعة مفتونًا بالذهاب إليها والدراسة فيها؟! أيكون ما أقوله للجميع مجرد تهدئة بال فلا يسرح العقل فيما لَم يكتب لي فيتعبني ويورد نفسي موارد الكدر والهموم فتعطب، وقد جعل الله لها مخرجًا فتأباه النفس، ولا تجد فيه حتى الآن سبيلًا لخلاص؟!

سحب وسادةً، وألقاها أرضًا، ثم أراح رأسه عليها، وتمدَّد على أرضٍ يطلب سكونًا لرأسٍ اشتعلَت فيه نيران التفكير، ويطلب راحةً لجسدٍ هدَّ حَيْله قائده ومدبِّر أمره!

في الليل كان له لقاء كما المعتاد كل وقت مع أصحابه في استراحةٍ لأحدهم، وهناك التقى بزملاء السفر يوم المقابلة إياها قبل أيام، صالح، ومحمد، وخالد.

أحاديث كثيرة لا رابط بينها دارت بين الصحب وإن تخلَّلَتها متابعات بين الفينة والأخرى لأخبار الساعة تنقلها فضائيات.

أخذ سامي ورفقاء الدراسة المستقبلية جانبًا بعيدًا عن لغط المجلس، وأخذوا يناقشون بجدية موضوع السفر بعد أيام للجامعة لتسلُّم غرفتهم الخاصة وكيفية تجهيزها بما يجعلها بيئة صحية وصالحة للمذاكرة والمراجعة، وتكون مجهَّزةً بما يلزم مِن احتياجات معيشة لا تجعل أحدهم يضيع وقتًا في الخارج.

اتَّفقوا على يوم معيَّن للذهاب، ثم التحقوا بزملائهم، وانخرطوا معهم في الحوارات المعتادة، وشاركوهم اللعب في لعب التسلية التي بين أيديهم، حتى قام فيهم صاحب منهم مذكِّرًا:

- سامي.. خالد.. صالح.. الظاهر أنكم نسيتُم أنكم عمَّا قريب ستكونون مِن طلبة البترول والمعادن، وأنَّ عليكم أن تكونوا مستعدِّين لذلك، إنكم بحاجة لاعتياد النوم مبكِّرًا، فإني أعرف مِن أبناء عمومةٍ لي أنَّ أول سنة في جامعتكم هذي متعِبة مجهِدة، ولا يجتازها إلا مَن وفَّقَه الله وأعانه، فكان ملتزِمًا خط الجدِّ والالتزام بساعات المحاضرات طوال يوم طويل.

إنَّ محاضرات السنة الأولى هناك تبدأ السابعة صباحًا، وتستمرُّ للخامسة مساءً مع ساعة راحة بينها عند الظهيرة تكون لصلاة وغدَاء، وربما قيلولةِ دقائق تعين لبقية ساعات لاحقة.

لذا يا أحبابنا على بيوتكم؛ لتعتادوا النوم مبكِّرًا، فلا يأتي وقت التحاقكم بها إلا وقد اعتدتُم ذلك، وأصبح ديدنًا لكم لا تتكلَّفون صنيعه، فربما شقَّ عليكم فأصابكم النفور لا قدر الله.

دعوني أزيدكم مِن الشعر بيتًا يفيدكم غدًا، وستدعون لي أن نبَّهتُكم على هذا الأمر، إنَّ لي ابن خالٍ كان مِن المعدودين مِن خواص النخبة مِن الأذكياء في الثانوية، وقد التحق بالبترول، فكان ميَّالًا للسهر، فتفوته المحاضرات الكثيرة، وكان يعتقد أن حصوله على درجات عالية في الاختبارات الدورية كافٍ لانتقاله للمرحلة التالية، وقد كان يُعَوِّل على ذكائه، ومع أنَّه استطاع فعلًا وبمجهوده الشخصي أن يستوعب ما في تلك المقررات، وأن يحصل على درجات هي الأعلى بين زملاء فصله، إلا إنه وقُبَيل امتحانات الفصل الأول جاءه خطاب فصلٍ مِن الجامعة بسبب كثرة الغياب، ولَم يلْتَفَت لما حقَّقَه مِن عالي الدرجات ولا لمقدرته العقلية التي أهَّلَته للحصول على درجات كتلك وهو لَم يحضر إلا محاضرات قليلة، فطُرِدَ والطرد مِن جامعة مميزة كهذي معناه عدم القدرة على الالتحاق بها مستقبَلًا.

سامي:

- شكرًا جزيلًا لكَ يا حسن، فكلامك محلُّ تقدير منَّا، وحرصك على مصلحة أصحابك دليل طيبة قلب ونقاء نفس، وإنَّا – إن شاء الله – سنجعل ما نصحتَنا به حلقةً في آذاننا، وسيكون لا ريب نصب أعيننا الوقت كله حتى حصولنا على الشهادة الجامعية، وأظنُّ صالحًا وخالدًا يوافقانني الرأي، وسنحتفل يومًا جميعًا وهنا تحديدًا بحول الله بتخرُّجنا، وهناك سيكون لك يا حَسن بالذات منَّا هدية معتبَرة، فأنتَ بحقٍّ تستحق.

حسن:

- هديتي يوم أراكم يا أحباب وقد نلتم ما تصبون إليه، وتبوَّأتُم مناصب في الشركة عليا، فعسى ألا تنسوا يومها حَسنًا وتنكرونه.

هنا ضحك الجميع، وانفضَّ الجمع، وذهب كُلٌّ لبيته، فقد انتصف الليل، وما عاد كثير وقتٍ على صلاة الفجر.

سامي وقد بدأ الهوس القديم بالدراسة بأمريكا ينسحب مِن ساحة تفكيره، ويحلُّ محلَّها شوق للدراسة ببترول، ولعلَّ اتصاله بكثير مِن أقاربه الذين درسوا هناك أو الذين لا زالوا فيها جعلَه يَطمئِنُّ لقوة هذه الجامعة الوطنية المحترمة، ويتلهَّف

لسرعة الالتحاق بها والنهل مِن معارفها، كما وأنه أخذ يقضي وقتًا بين الحين والآخر يقلِّب صفحات موقع الجامعة في الشبكة العنكبوتية، ويرى فيها المظهر الجميل والمحتوى الأجمل، فصفحات علمائها في كل التخصصات ملأى بإنجازات عالمية تجعل الملتحِق بها يفخر غدا أن تخرج على أيديهم، كما أنَّ صفحات الجامعة حبلى بعدد كبير مِن خريجين حقَّقوا إنجازات في تخصصاتهم عالمية، أو بلغوا مناصب إدارية عالية في كبرى الشركات الوطنية، وكانوا مِن أسباب الارتقاء بها.

سامي أخذَ يعيش الأيام القليلة المتبقية على الجامعة في حلم جميل يسافر به على أجنحة اللهفة والترقُّب لمستقبلٍ مشرق.

دقَّ جوَّال سامي، فأخرجَه مِن جيبه، وإذا بالمتَّصل زميله خالد باديًا اسمه على الشاشة، فردَّ سريعًا:

- السلام عليكم، حيَّاك الله خالد.

خالد مستفسرًا:

- سامي.. أما ترى أنه كان ينبغي علينا أن نقَوِّي جانب اللغة عندنا قبل أن ندخل في معمعة دراسة كلها لغة إنجليزية خاصةً وأنَّ أول سنةٍ لغة مكثَّفة، وأنَّ اجتيازها بدرجات عالية مطلوب مِن الشركة التي ابتعثَتنا قبل أن يكون مطلبًا للجامعة، فهي يكفيها اجتياز الطالب بالحدِّ الأدنى المتعارَف عليه عندهم، و...

قطع سامي كلام صاحبه:

- الظاهر يا خالد أنَّ لديك متَّسعًا مِن الوقت، وأنِّي لو تركتُك تواصل لجلَسنا للصبح.. ثم علَت منه قهقهةٌ، أتبَعَها صاحبه على الطرف الآخر بمثلها وإن بدت أعلى شدةً وأكثر صفاءً.

واصل سامي إجابة صاحبه:

- أختصرها لك يا خالد، موضوع الاستعداد خُذه مني، وقد سمعتُها مِن جميع مَن أعرفهم ممَّن اجتازوا السنة الأولى وبامتياز، فالدراسة المكثَّفة للُّغة هناك تبدأ معك مِن الصفر، فهُم وبصراحة لا يُعَوِّلون كثيرًا على التعليم العام في جزئية تدريس اللغة الإنجليزية، ومع ذلك فلهُم طريقة في تعليمها تأخذك بسلاسة مِن القاع لتصلَ بك لمراحلَ تمكُّنٍ جيدة آخر السنة التحضيرية، ولعلَّ هذا ما يميِّز تعليم الجامعة عن سِوَاها مِن بقية جامعات المملكة، ولقد فهمتُ يا خالد مِن كلام أبناء العمومة أنَّك لو درستَ بجدٍّ تلك السنة فإنك ومهما كان مستوى إجادتك للُّغة أول ما دخلت الجامعة فإنك ستكون باجتيازك إيَّاها قادرًا على التحدث بها مع أهلها الأصليين بكل يسر وسهولة، فلا تخف يا حبيبنا، فهذه البترول والمعادن، فنَم "وفي بطنك بطيخة صيفي" كما يقال.

ومع ذلك فإني أنصحك يا خالد بأمر بدأتُ فيه مِن مدة، وألزمتُ نفسي به، استمِع يوميًّا ولمدة لا تقل عن نصف ساعة لإذاعات أجنبية كالـ BBC البريطانية أو VOA الأمريكية، وعندك فيها الأخبار والحوارات الجادَّة، فإنَّ الاستماع اليومي يقوِّي عندك مهارة التحدث وبذات الكيفية التي ينطقون بها، كما أنصحك بكثرة القراءة في الكتب الإنجليزية وأيضًا بصورة يومية ولو لمدة زمنية غير طويلة، فالمهمُّ المداومة والاستمرار، وقد قيل: قليل دائم خيرٌ مِن كثير منقطع، هل وضحَتِ الصورة الآن يا خالد؟

- أرحتَني يا سامي، وليتَ صالحًا أيضًا يسمع منك هذا؛ فلعلَّه ينتفع كما انتفعتُ أنا.

سامي:

- حبيبٌ أنت يا خالد، لا تخف، فقد علمتُ منه أنَّه اتَّبعَ ذات الطريقة، وأنَّه أحسَّ بفرق كبير بين ما كان عليه يوم تخرجنا مِن الثانوية وبين الآن، فرقٌ يقول صالح إنه جعله يشعر بثقة في نفسه وبقدرته بإذن الله على اجتياز سنة اللغة المكثَّفة باقتدار.

خالد وقد أفرحه أن يكون هؤلاء المميزون والجادُّون هم مَن سيكونون زملاءَه في السَّكن الجامعي:

- سنشَكِّل بحول الله مجموعة تحصيل متجانسة يعين كل منَّا صاحبيه، ويبثُّ فيهما الحماسة، وينفخ فيهما روح الطلب الجاد، أنا فعلًا أحسُّ أنِّي محظوظ أن تكونا زميلَيِ الدراسة.

سامي وقد تسلَّم الآن دفَّة الحوار بغية الرسو بسرعة على رصيف الصمت:

- نعم يا صالح، كلنا سعداء ببعض، و... تصبح على خير، فنحن اتفقنا على أن نعتاد الذهاب للنوم مبكِّرين!

ردَّ صالح:

- نعم سامي، ونومًا هنيئًا.